الحذف في الذكر الحكيم
من خلال (الجواهر الحسان) للثعالبي

الأستاذ السعيد بوخالفة

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

باتنة

تمهيد:

لم نر الثعالبي يشمخ بمؤلف له شموخه بالجواهر الحسان الذي يحق أن نعده ممثلا لنضجه العلمي، ففيه يبدو الثعالبي رجلا هضم التفسير النقلي ووعى ما أثر فيه. كما روى الحديث وأتقنه، وأحاط خبرا بالمسائل الفقهية ودقيق الخلاف فيها، وألم إلماما واسعا بالقراءات كما اطلع على ما في التراث الأدبي، وبدا فيه رجلا مقتدرا ومتكلما منطقيا جدلا. ذو حس مرهف لجمال النص القرآني.

فهذه الخصائص ولا شك وليدة ثقافته التي ثقفت حياته كلها، فتفسيره انعكاس لما تمثله من هذه الثقافات.

وهمنا أن نكشف عن بعض الجوانب المضيئة في تفسيره ومنها مسألة الحذف باعتبارها من المسائل البلاغية التي استعصى أمرها على الدارسين رغم ما ألف فيها من بحوث ودراسات.

الحذف من عظيم فنون القول، ومسلك دقيق في التعبير وتأدية المعاني، ترى به ترك الترك أفصح من الذكر. والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة.[1]

وقد أشاد البيانيون كثيرا بفن الحذف، وافصحوا عن ملامحه الجمالية فقعدوا له القواعد ووضعوا الشروط وأظهروا المزايا.

وكان لمظاهر الحذف في القرآن الكريم أكبر عون للبلاغيين على تعرف جهاته. ورصد حالاته وكشف أسراره مقيسا عليه كل فن بليغ وأدب رفيع.

وقد أجمع العلماء على أن الحذف لا يصار إليه إلا إذا بقيت في الكلام قرينة تدل على المحذوف، حتى لا يصبح البيان ضربا من التعمية والغموض لأن شرط جودة الأسلوب الوضوح وحسن الدلالة.

وهذا الشرط ضروري لا يجوز إغفاله، لأن الحذف إذا لم يكن فيه ما يدل على المحذوف ويعينه جار على اللفظ والمعنى، والألفاظ كما قالوا: أوعية المعاني.[2] فبالحذف يكمن السر الجمالي في التعبير لأنه مظهرا من ظاهر مقتضى الحال.

ومظاهر الحذف في القرآن الكريم متعددة، لكن البلاغيين اتجهت عنايتهم إلى حذف المفعول به أكثر من غيره، لأن اللطائف فيه أكثر وأعجب.[3]

ويبدو لي أن الثعالبي في تناوله لهذه الظاهرة قد حذا حذو المفسرين الذين سبقوه فاقتفى أثرهم واتبع نهجهم في الإشارة إلى هذه المسألة ومن ذلك:

---

[1] ــ إعجاز القرآن للجرجاني:7.

[2] ــ ينظر المثل السائر: 304/2.

[3] ــ المثل السائر: 279/2.

حذف الحرف:

وقد ورد حذف الحرف في القرآن الكريم في مواضع متعددة، ولمعرفة حذفه فيه فيما يبدو ضابطان.

الأول: دلالة الحرف المحذوف على معنى مع بقاء هذا المعنى بعد الحذف.

الثاني: اعتبار الحرف محذوفا بالقياس على موضع آخر مماثل ورد فيه الحروف دون حذف.

فمن النوع الأول حذف حرف النداء "الياء" حيث لم يأت في القرآن الكريم أداة نداء سواه. ولأن العلماء قد نبهوا على أن أداة النداء إذا حذفت وجب أن يقر المحذوف ياءا لأنها أم الباب.[4]

وقد التزم القرآن الكريم حذف أداة النداء "الياء" في كلمة "رب" خاصة في كل موضع وردت فيه على هذا الوجه إلا في موضعين:

الموضع الأول قوله تعالى: "وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا"[5].

وأما الموضع الثاني ففي قوله تعالى: " وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون"[6].

وقد علق أحد الباحثين المحدثين على هذه الآية بقوله: وعلى كثرة ما تؤدي الرب في القرآن لم أعثر عليه مسبوقا بحرف النداء إلا في هذه الآية. ويظهر أنه لم يتتبع مواضعها، وإلا لم يقع في هذا القصور.[7]

---

[4] ــ المغني: 320/1.

[5] ــ الفرقان: 3

[6] ــ الزخرف: 88.

[7] ــ من بلاغة القرآن: 169.

وقد وفق الدكتور أحمد بدوي إلى تعليل مفاده أن السر في حذف أداة النداء "الياء" مع "رب" للمبالغة في تصوير قرب المنادى "رب" معناه: المربي والسيد والمالك، وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريبا حاضرا لا يحتاج في ندائه إلى وسائط.[8]

ضف إلى ذلك أن هذه الكلمة "رب" أكثر استعمالا من غيرها في الدعاء فروعي فيها التخفيف ما يجعلها أكثر دورانا على الألسنة وأسهل في مجاري الحديث.

ولم يقتصر حذف أداة النداء في القرآن الكريم على كلمة "رب" فحسب بل جاء ذلك في مواضع عديدة منها قوله تعالى: "يوسف أعرض عن هذا"[9].

قال الثعالبي: يوسف منادى لحرف النداء "الياء" المحذوفة.[10]

وقس على ذلك قوله تعالى: " ربنا لا تؤاخذنا"[11].

قال الثعالبي: معنا يا ربنا.[12]

ولعل السر في إيثار القرآن الكريم لحرف النداء "يا" دون غيره. لأن هذه الأداة تكون الوسيلة الطبيعية في النداء، فهي أكثر الحروف استعمالا لدى العامة والخاصة، كما أنه أخف حروف النداء في النطق، لأنها تبدو في خفة حركتها كأنها صوت واحد.

ومن النصوص التي تعرض فيها الثعالبي إلى حذف الحرف أذكر قوله تعالى: "قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف"[13].

---

[8] ــ المرجع السابق: 170.

[9] ــ يوسف: 29.

[10] ــ الجواهر الحسان: 316/2.

[11] ــ البقرة: 286.

[12] ــ الجواهر الحسان: 284/1: ينظر الآية 101 من سورة يوسف.

قال المفسر: المعنى تالله لا تفتأ فتحذف "لا" في هذا الموضع من القسم لدلالة الكلام عليها.[14]

يرى الزمخشري[15] ومن استأنس به أن الحذف هنا حصل لا من اللبس والكلام مسوف للنفي إذ لو كان إثباتا لوجب اللام والنون فيه فترك ذلك دليل على بقاء النفي وإن حذفت أداته.

وقد استشهد الثعالبي بقول امرئ القيس[16]:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

يريد لا أبرح. وفتيء بمنزلة زال ويرم في المعنى والعمل.

وسر حذف حرف النفي "لا" في هذه الآية كما يراه أحد الباحثين المحدثين أن "لا" محذوف لضيق المقام لأن الأزمات النفسية عند إخوة يوسف قد بلغت ذروتها في هذا الموضع. ويكفي أن يستحضر الإنسان الآيات السابقة على هذه الآية للتأكد من صحة ذلك.

حيث تفجرت في نفس يعقوب عليه السلام عواطف اليأس والرجاء، وظهر ذلك على ملامحه وأعرض عن إخوة يوسف غير آبه بما يقولون، شاكا في قولهم في مقام يفيدهم فيه التصديق، جائز بالشكوى إلى الله تعالى. يكاد الأسر يمزق قلبه وهو شيخ كبير.

هذه المواقف كان لها أثر بالغ على إخوة يوسف فضاقت عليهم الأرض فكان حسنا من القرآن ــ وهو يعبر عن تلك الحالات النفسية الدقيقة ــ أن يكون في التعبير نفسه ما يشير إلى تلك الحالات أبلغ وأوجز إشارة.[17]

---

13 ــ يوسف: 85.

14 ــ الجواهر الحسان: 344/2.

15 ــ الكشاف: 320/6.

16 ــ الديوان: 50 ينظر الجواهر الحسان: 344/2.

17 ــ خصائص التعبير القرآني: 9 – 10 .

وأما ما أورده امرؤ القيس فهو تعبير عن موقف الخطر الذي يحدق به فكان لزاما عليه أن يستبدل بالكلمات الهمسات، وبالهمسات الإشارات خوفا من أسماع وأعين الرقباء.

أما النوع الثاني من ضابطي حذف الحرف. وهو الذي يعتبر الحرف فيه محذوفا في موضع قياسا على موضع آخر ورد فيه مذكورا.

ومما ورد في اجواهر الحسان تفسير قوله تعالى في شأن أهل النار:" وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها "[18].

فجاءت الآية الكريمة محذوفة الواو وقال: "فتحت" بدليل ذكرها في موضع آخر مماثل لهذا الوضع. وهو قوله تعالى في شأن أهل الجنة: " وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا. حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها"[19].

جاءت الواو محذوفة في الآية الأولى، مذكورة في الآية الثانية، فما الذي ترتب على الحذف والذكر من تغير في المعنى والأعراب.

للإجابة عن هذا التساؤل نستعين بما جاء به الزمخشري[20] والثعلبي[21] وملخص ذلك:

حذف الواو في الآية الأولى ما بعدها للشرط. فأصبح جوابا لـ "إذا" ، أما ذكرها في الثانية فقد حمى ما بعدها أن يقع جوابا للشرط. ولوح بأن الجزاء محذوف، ولأنه صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف.

---

18 ـ الزمر: 71 .

19 ـ الزمر: 73.

20 ـ الكشاف: 114/4.

21 ـ اهر الحسان: 88/4.

كما أن الحذف في الأولى دل على أن أبواب جهنم فتحت حين جاءوها لأن "إذا" ظرف لما يستقبل من الزمان و "فتحت" جوابها، والذكر في الثانية دل على أن أبواب الجنة كانت مفتوحة قبل أن يأتوها.

هذه نماذج سقناها للتدليل على حذف الحرف في القرآن الكريم وهي مثل مضروبة على سبيل الحصر.

أما حذف الكلمة في القرآن الكريم فقد اتخذ صورا مختلفة منها:

1 ــ **حذف الفعل:** ويكون ذلك إذا وقع اسم مرفوع على الفاعلية بعد أدوات الشرط: " إن" و "إذا".

ومن ذلك قوله تعالى: " وإن أحد من المشركين استجارك فأجره"[22].

قال الثعالبي: "أحد" مرتفع بفعل الشرط مضمرا يفسره الظاهر.[23] نقلا عن الزمخشري حيث قال في تفسير هذه الآية الكريمة: "أحد مرتفع بفعل الشرط مضمورا يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد استجارك، ولا يرتفع بالابتداء[24]، لأن "إن" من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. والمعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين ما بعثت له فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر. ثم أبلغه بعد ذلك داره التي يأمن فيها. إن لم يسلم"[25].

والملاحظ أن الثعالبي والزمخشري لم يذكرا سبب الحذف البياني، إلا أنه وباستقراء النص تدرك أن سبب الحذف المناسب له التوكيد والتقرير.

---

22 ــ التوبة : 6 .

23 ــ الجواهر الحسان: 88/4.

24 ــ وهو مذهب الكوفيين.

25 ــ الكشاف: 193/2 – 194.

وقد يحذف الفعل لوقوعه في خبر فعل آخر لكل منهما معمولـــه فـــي الكلام. ومن ذلك تفسير قوله تعالى: " يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصـــلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق واسمحوا برؤوســـكم وأرجلكـــم إلـــى الكعبين"[26]. قال المفسر: وقرأ نافع وغيره "وأرجلكـــم" بـــالنصب، والعـــامل "اغسلوا"، وجمهور الأمة من الصحابة والتابعين على أن الغرض في الرجلين الغسل وأن المسح لا يجزئ.[27]

فـــ "أرجلكم" معمول الفعل محذوف تقديره "اغسلوا أرجلكم" والـــذي دل الحذف وتعين المحذوف هو الشرع، لإفادة أن الرجل في الوضوء تغسـل ولا تمسح كما هو الحال في الرأس. ولذلك لم يصح عطفها على "رؤوسكم" لئـــلا تشترك معها في الحكم.

وقد يحذف الفعل لإرادة التحذيـــر، ومنـــه قولـــه تعـــالى: " ناقـــة الله وسقياها"[28] . قال المفسر "سقياها" نصب بفعل مضمر تقديـــره احـــذروا[29]. فحذف الفعل لما ذكر وللاختصار وكثرة المعنى. وهو فن جليل مـــن فنـــون التعبير لا تجد فيه إلا حكمة وإصابة.

2 ــ حذف الفاعل:

الأصل في الفاعل الذكر باعتباره ركنا أساسيا في الجملة الفعلية، لذلـك يمنع النحاة حذفه لغير عليه صرفية، أو يمنعونه مطلقا.[30]

---

[26] ــ المائدة : 6.

[27] ــ الجواهر الحسان: 534/1.

[28] ــ الشمس: 13.

[29] ــ الجواهر الحسان: 624/4.

[30] ــ حاشية الصبان: 2 / 220 باب حذف الفاعل.

فالعلة التي من أجلها يحذف الفاعل وخصوصا إذا كان "واو الجماعة"، وأكد فعله "بنون التوكيد" أو " ياء مخاطبة. وقد ورد ذلك في مواضع عديدة من القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون"[31].

وقوله تعالى: " لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور" [32].

فقد حذف الفاعل وهو "واو الجماعة" في "تموتن" و " لتسمعن" . والسبب في ذلك راجع إلى التقاء الساكنين، فكان الحذف للتخلص من الساكنين، وبقاء الضم دليل عليه.

ومن الأمثلة مع ياء المخاطبة قوله جل شأنه: " فإما ترين من البشر أحد"[33]. كما ورد الفاعل محذوفا في مواضع من كتاب الله، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: " فلولا إذا بلغت الحلقوم"[34].

قال المفسر: يعني بلغت الحلقوم نفس الإنسان.[35]

ففاعل بلغت هو النفس ولم يجر لها ذكر قبل حتى يقال إنها مضمرة وهو حديث عن ساعة الاحتضار. وهي القرينة الحالية التي دلت على الحذف وعينت المحذوف.

ومنه قوله تعالى: " كلا إذا بلغت التراقي" [36]

---

31 ــ آل عمران 102 .

32 ــ آل عمران: 186.

33 ــ مريم: 26.

34 ــ الواقعة: 83.

35 ــ الجواهر الحسان: 356/4.

36 ــ القيامة: 26.

قال المفسر : و "بلغت" يريد النفس.[37]

حيث لا يبلغ التراقي عند الموت إلا النفس.

ومن المواضع التي ورد الفاعل فيها محذوفا قوله تعالى: " أني أحببت حب الخير عن ذكر ربي، حتى توارثت بالحجاب"[38] .

قال المفسر: ففاعل توارثت للشمس لأن المعنى يقتضيها.[39]

وهذا أرجح الأقوال.[40]

وبما أن الشمس أشرف وأعظم الأفلاك حذفت في الآية لقوة ظهورها وقوة القرينة مع الاختصار ومرجح للحذف على الذكر لأن حذف ما يعلم جائز. أضف إلى ذلك ضيق المقام إذا المقام في المثالين الأولين وصف ما يعترض المحتضر من عوارض الموت، وفي الثالث، المقام مقام شكوى وندم.

كما ورد الفاعل محذوفا في مواضع منها[41]. والسر في ذلك يعود إلى أن الفعل شديد الايحاء بالفاعل. أو أن القرينة التي تدل عليه واضحة فيصبح كالمتعين الذين تتصرف إليه النفس أول وهلة.[42]

---

37 ــ الجواهر الحسان: 523/4.

38 ــ ص: 32 .

39 ــ الجواهر الحسان: 55/4 .

40 ــ أنظر الكشاف: 72/4.

41 ــ الأنعام: 94، ويوسف : 35.

42 ــ من بلاغة القرآن: 156.

3 ــ حذف المبتدأ والخبر:

الذي يعتري الجملة الاسمية بحذف أحد ركنيها ــ المبتدأ والخبر ــ أو هما معا كثير شائع في الكلام العربي الفصيح، وليس لديهم مانع في حذف أحدهما إذا دل عليه دليل أو أن المقام يقتضي ذلك.

وحذفهما له أحوال شتى عند النحاة. فقد يكون واجبا وقد يكون جائزا. وقد درسوا كل هذه المواضع ووضعوا لذلك الأصول والقواعد.

وهذا خلافا للجملة الفعلية، حيث يرون أن ذكر الفاعل واجب إلا في حالات معينة، والفعل الأصل في الذكر.

ولم يرد عن علماء اللغة ونحاتها حالة واحدة يجب فيها حذف الفعل، فالأمر فيه دائما الجواز.

ومن هن نشير أن نظرة النحاة إلى ركني الجملة الفعلية غير نظرتهم إلى ركني الجملية الاسمية. فالرابطة بين ركين الجملة الاسمية متكافئة. فليس أحدهما فيها أظهر من الآخر.

أما الرابطة بين ركني الجملة الفعلية فغير متكافئة، باعتبار الفاعل هو موجد الفعل، فيكون في حذفه إجحاف بالمعنى ولذلك شددوا على عدم حذفه.

والدارس للقرآن الكريم يقف على مواضع متعددة لحذف المبتدأ أو الخبر أو هما معا. فكل موضع حدث فيه حذف إلا وكان أحسن من الذكر.

وهذا ما لمسناه في الجواهر الحسان، ومن الأمثلة على ذلك، قوله تعالى: " والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات" [43].

قال المفسر: (في الظلمات) خبر لمبتدأ محذوف تقديره، هم في الظلمات[44].

---

[43] ــ الأنعام: 39 .

[44] ــ الجواهر الحسان: 1/621.

ومنه قوله تعالى: " تنزيل الكتاب لا ريب فيه" [45].

قال المفسر: و (تنزيل) يصح أن يرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك تنزيل.[46]

ومنه أيضا: قوله تعالى: " فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة"[47] .

قال المفسر: و (سلام) ابتداء خبره محذوف، والتقدير: سلام ثابت أو واجب عليكم.[48]

فالمحذوف في هذه المواضع ظاهر تعيينه للدلالة الكلام عليه، والحذف مما يمكن المحذوف من النفس بعد البحث عنه والتوصل إليه. ومن المواضع التي يصح فيه تقدير المحذوف ــ خبرا أو مبتدأ ــ وهو الواقع بعد "الفاء" الواقعة في جواب الشرط. نحو قوله تعالى: " فمن لم يجد فصيام شهرين" [49].

قال المفسر: والتقدير عدة من أيام أخر، أو فعدة من أيام أخر واجب صيامها.[50]

وقوله أيضا: "فصبر جميل"[51]، قال المفسر: إما على حذف المبتدأ أي: فشأني صبر جميل، وإما على حذف الخبر، فصبر جميل أمثل[52].

---

45 ــ السجدة: 2 .

46 ــ الجواهر الحسان: 333/3.

47 ــ الأنعام: 54.

48 ــ الجواهر الحسان: 626/1.

49 ــ النساء: 92.

50 ــ الجواهر الحسان: 478/1.

51 ــ يوسف: 18.

52 ــ الجواهر الحسان: 310/2.

وأنت ترى أن تكثير المعنى مع الإيجاز مصاحب لهذه الأساليب مع خلوها من الإجحاف والجور على المعنى.

حذف المضاف:

يحذف المضاف كضرب من التوسع في اللغة، وإيراد المعنى في قليل من اللفظ لأن المضاف إذا حذف سهل تصوره.

وحذفه في القرآن الكريم كثير. وقد أحصى عز الدين بن عبد السلام[53] ما حذف من مضافات القرآن الكريم. ومنه قوله تعالى: "وجاهدوا في الله حق جهاده" [54].

قال المفسر: أي في سبيل الله. [55]

وقوله: " ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم، بكم، عمي، فهم لا يعقلون"[56].

قال المفسر: فذكر الله تعالى: بعض هذه الجملة ودل المذكور على المحذوف. وهذه نهاية الايجاز[57].

وأصل الجملة: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ثم حذف المضاف وهو داعي، رفقا لشأنه في اللفظ عن أن يقرن بهذا الذي ينعق بما لا يسمع.

ومن الأمثلة على حذف المضاف في القرآن الكريم قوله تعالى: " وجاء ربك والملك صفا صفا[58]" أي أمر ربك، وقوله: " حرمت عليكم الميتة[59]" أي

---

[53] ـ الإشارة إلى المجاز: 12/3.

[54] ـ الحج : 78.

[55] ـ الجواهر الحسان: 136/2.

[56] ـ البقرة: 171.

[57] ـ الجواهر الحسان: 159/1 .

أكلها والواضح أن سر الحذف في هذه النصوص وغيرها هو إظهار المعنى في صورة أوضح وعلى وجه أقوى وأشمل.

حذف المضاف إليه:

أما حذف المضاف إليه فدون المضاف في الورود ولكنه مثله من يحث أنه دال على معان كان حذفه من أجلها بلاغة. ومن ذلك قوله تعالى: " وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر"[60]. أي بعشر ليال.

كما يكثر حذف المضاف إليه إذا كان "ياء المتكلم" والمضاف منادى وهذا جائز في اللغة. ومن ذلك قوله تعالى: " رب أغفر لي"[61].

فحذف المضاف إليه وهو "الياء"، والمضاف هو رب باعتباره منادى وبقيت الكسرة دليلا عليها.

فكلمة "رب" لا تحتاج في نسبتها إلى المتكلم فهو رب كل شيء سواء أضيف أم لم يضف. وقد حرص القرآن الكريم على أن يستعمل هذه الكلمة محذوفا منها ضمير المتكلم المضاف إليه في أغلب مواضعها.

كما أن هذه اللفظة "رب" تستعمل كثيرا في النداء روعي فيها وجه الخفة بحذف ما تضاف إليه. إلا ان يكون اسما ظاهرا غير ضميرا المتكلم نحو قوله تعالى: " ربكم ورب آبائكم الأولين"[62] .

---

58 ــ الفجر: 22 .

59 ــ المائدة: 3.

60 ــ الأعراف: 142.

61 ــ الأعراف: 151.

62 ــ الشعراء: 26.

كما يأتي المضاف إليه محذوفا بعد الظروف والغايات نحو قوله تعالى: " ولله الأمر من قبل ومن بعد"[63]. وقوله: "وكل في فلك يسبحون" [64].

فهذه النصوص وغيرها مما يظهر فيها أمر الحذف والتقدير، وهو فضلا عن كونه من التوسع في اللغة فإنه فيه فضيلة الإيجاز مع وفاء الدلالة.

حذف جواب القسم:

وهو كثير في القرآن الكريم، وقد ورد ذلك في مطالع بعض السور ومنها قوله تعالى: " والنازعات غرقا"[65]، ومثل قوله تعالى: " والفجر وليال عشر"[66] وتقدير الجواب في الأول: لتبعثن، وفي الثاني ليعذبن.

فجواب القسم في ذلك كله محذوف يفهم من السورة التي ورد فيها هذا القسم، وإن في هذا الحذف بعث النفس على التفكير، لتهتدي إلى الجواب وتظل النفس تتبع هذه الآيات يتلو بعضها بعضا تستوحي منها هذا الجواب، الذي لابد أن يكون شيئا عظيما بقسم الله عليه، والمتتبع لذلك يدرك أن هذا القسم وارد لتأكيده وأنه سيكون لا محالة، أولا ترى في حذف هذا الجواب دلالة على مثوله في الذهن لشدة ما شغل النفس، واستأثر بعميق تفكيرها، يوم نزل القرآن مؤكدا مجيء اليوم الآخر.[67]

وفي حذف جواب القسم فإن دليل الحذف ما بقي من الأجزاء، أما السر البلاغي فتقديره يعود للنفس بأي صورة مناسبة وفيه تكثير المعنى.

---

63 ــ الروم: 4. ينظر : الجواهر الحسان: 310/3.

64 ــ يس: 40. ينظر: الجواهر الحسان: 10/4.

65 ــ النازعات: 1. ينظر: الجواهر الحسان: 657/4.

66 ــ الفجر: 1، 2، ينظر: الجواهر الحسان: 611/4.

67 ــ من بلاغة القرآن: 125.

حذف جواب إذا ولو:

كذلك يحذف في القرآن الكريم جواب إذا، ولو، ويورث هذا الحذف الكلام قوة وشدة أسر. فمن أمثلة إذا قوله تعالى: " ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم"[68]. قال المفسر: جواب إذا محذوف يدل عليه المعنى تقديره انهزمتم. وهو مذهب الخليل وسيبويه[69].

ومن أمثلة لو: قوله تعالى: " كلا لو تعلمون علم اليقين" [70]. قال المفسر: جواب لو محذوف تقديره لازدجرتم وبادرتم إنقاذ أنفسكم.[71]

وإنما صار الحذف هنا أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنته العبارة.

ومن الملاحظات التي يمكن الوقوف عليها في هذا المقام أن الثعالبي قد استأنس بمن سبقه من العلماء والمفسرين فأخذ عنهم آراءهم دون أن يدخل معهم في جدال أو نقاش أو نقد ومنهم الزمخشري، والطبري، وابن عطية.

والخلاصة:

هذه هي بعض صور الحذف التي وقفت عليها من خلال دراستي لتفسير الجواهر الحسان للثعالبي، والذي يدعوه البلاغيون أحد مظاهر الإيجاز فالأسلوب العربي موسوم بالإيجاز من أصل النشأة، لأنه أسلوب أمة صافية الذهن دقيقة الحسن، فهو في بلاغة العرب أصل وروح وطبع. وهذه فضيلة من فضائل الحذف في القرآن.

---

68 ــ آل عمران: 15.

69 ــ الجواهر الحسان: 382/1.

70 ــ التكاثر: 5.

71 ــ الجواهر الحسان: 664/4.

فالحذف القرآني لا ينتهي عند فضيلة الإيجاز. بل له فضائل بيانية تكاد تتعدد بتعدد مواضع وروده.

وخصائص الحذف القرآني يمكن إبرازها في الآتي:

1 ــ سلامته من الإجحاف في المعنى والخلل في الأسلوب، فكل حذف فيه يحكمه دليل قوى يعين على تصوره، والداعي البلاغي الذي دعا إلى الحذف. رغم ما ألف من بحوث في هذا الداعي، إلا أنها مازالت قاصرة عن إدراك المبتغى، وما زال القرآن الكريم حقلا خصبا وموردا بكرا، والباحث فيه واجد جديدا لم يشر إليه القوم.

2 ــ كل موضع حذف منه شيء إلا وكان الحذف أبلغ من الذكر. وهو ما أشار إليه عبد القاهر حين قال: " ما من اسم حذف في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكر"[72].

وفي النهاية ارتأيت أ، تكون هذه الخلاصة مشفوعة بشهادة أحد أدباء هذه الأمة ومفسروها إذ قال: " إن القرآن حين يحذف فيه ما يحذف من مشاهد وأحداث يحمل السامع أو القارئ على المشاركة في بناء ما يمكن أن يقص، تنشيطا لخياله، وتحريكا لوجدانه، فيظل ــ أبدا ــ مأسورا لما يسمع أو يقرأ. ماضيا على هوى نفسه.

وقد استمتعت نفسه بكل مزايا الفن الجميل. مؤمنا بما يهدف إليه القصص القرآني من مثل عليا وآداب رفيعة، وذلك لأن القرآن يحيل الجمال الفني أداة للتأثير الوجداني. فخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية".[73]

---

[72] ــ دلائل الإعجاز : 120.

[73] ــ التصوير الفني في القرآن : 141.

وإن كان هذا النص ينطبق على القصص القرآني، فإنه ينطبق على مظاهر الحذف في القرآن. جميعا، فلكل حذف فيه نصيب.

مراجع البحث:

1- تفسير الجاهر الحسان للثعالبي.
2- تفسير الكشاف للزمخشري.
3- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.
4- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية.
5- المثل السائر لإبن الأثير.
6- من بلاغة القرآن أحمد بدوي.
7- التصور الفني في القرآن السيد قطب.